المنهج الكلاميّ عند المقداد السيوري الحِلّيّ
الشيخ عليّ الربَّانيّ الكلبايكانيّ

الشيخ محمَّد فرضي بوريان

طالب دكتوراه في علم الكلام الإسلاميّ

ترجمة : أيُّوب ناصر نعمة

The Speech Approach According to Al-Miqdad Al-Siuri Al-Hilli Sheikh Ali Al-Rabbani Al-Kalpayani

Sheikh Muhammad Fardi Bourian

Ph.D. Student in Islamic Theology

Translated by: Ayoub Nasir Niema

لمحة عن حياته وشخصيَّته العلميَّة

أبو عبد الله المقداد بن عبد الله بن محمَّد بن الحسين بن محمَّد السيوريّ الأسديّ الحِلِّيّ الغرويّ النجفيّ، المعروف بالفاضل المقداد، ولِد في قرية سيور التابعة لمدينة الحِلَّة، لم يضبط تأريخ ولادته، أمَّا وفاته فكانت في النجف عام ٨٢٦هـ[١].

وكان رحمه الله من العلماء الكبار في العلوم، كـ: الفقه، والأصول، والكلام، والفلسفة، ولذا له مكانة رفيعة عند الفقهاء، ومنزلة مرموقة عند المتكلِّمين، ومن أبرز أساتذته في الفقه الشهيد الأوَّل[٢].

وبرع الفاضل المقداد فيما تداول في عصره من العلوم والحقول المعرفيَّة المختلفة، العقليَّة والنقليَّة كـ: علم الكلام، والفلك، والفقه، والأصول، وعلوم اللغة والأدب، ولهذا نطالع في آثاره خوضه المجالات العلميَّة المختلفة، فله من الآثار والتأليف والتصنيف الكثير، ففي الآدب: (تجويد البراعة في شرح تجريد البلاغة)، وهو شرح لعلمَي المعاني والبيان، وفي الحديث: (أربعون حديثًا)، وهو شرحٌ لأربعين حديثًا من الأحاديث الأخلاقيَّة للمعصومين عليهم السلام، و(الأدعية الثلاثون)، وهو شرح لثلاثين دعاء عن النبيّ وأهل البيت عليهم السلام، والتفسير (كنز العرفان في فقه القران)، في آيات الأحكام.

(١) لاحظ: هامش روضات الجنَّات: ٧/ ١٧٥.
(٢) راجع: المصدر نفسه: ١٥.

وأنّه كتب في الفقه، مثل: (آداب الحجّ)، وهو تفسير مناسك الحجّ، و(نضد القواعد الفقهيّة)، وهو تدوين وتقرير جديد من كتاب: (القواعد والفوائد) للشهيد الأوّل، و(التنقيح الرائع في شرح مختصر الشرائع)، ويمثّل هذا الكتاب خلاصة فقهيّة من مبحث الطهارة إلى الديات، و(جامع الفوائد في تلخيص القواعد)، وهو شرح كتاب الفوائد للشهيد الأوّل، و(شرح الألفيّة) للشهيد الأوّل.

و دوّن في علم الكلام: (اللوامع الإلهيّة في شرح المباحث الكلاميّة)، و(إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين)، وهو شرحٌ على كتاب (نهج المسترشدين في أصول الدين) للعلّامة الحِلّيّ، و(شرح الفصول النصيريّة) للمحقّق نصير الدين الطوسيّ، و(الاعتماد في شرح واجب الاعتقاد) للعلّامة الحِلّيّ، و(النافع ليوم الحشر) شرح لكتاب (الباب الحادي عشر) للعلّامة الحِلّيّ[1].

أقوال العلماء في الفاضل المقداد

ذكر العلماء واصحاب التراجم والرجال «الفاضل المقداد» بألقاب وأوصاف كثيرة تدلُّ على عظمته ومنزلته المتميِّزة، أنقل جملة من تلك الاقوال[2]:

قال الشَّيخ الحرُّ العامليّ: «كان عالمًا، فاضلًا، متكلِّمًا، محقِّقًا، مدقِّقًا»[3].

وقال العلّامة المجلسيّ: «الشَّيخ الأجلّ المقداد بن عبد الله، من أجلّة الفقهاء، وتصانيفه في نهاية الاعتبار والاشتهار»[4].

(١) ينظر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٣/ ٣٥٢، و٤/ ٤٦٣، و١٨/ ١٥٩، وأعيان الشيعة: ١٠/ ١٣٤، ومستدرك الوسائل: ٤/ ٢٨٣.

(٢) ولاحظ أيضًا: ريحانة الأدب: ١/ ٢٩٩، رياض العلماء: ٤/ ٢٥٥، ١٨٣، ومستدرك الوسائل: ٣/ ٤٣١.

(٣) أمل الآمل: ٢/ ٣٢٥.

(٤) البحار: ١/ ٤١.

وقال العلَّامة المامقانيّ: «كان عالمًا جليلًا، و فاضلًا نبيلًا، محقِّقًا مدقِّقًا، متكلِّمًا وفقيهًا»[1].

قال تلميذه الشيخ حسن بن راشد الحِلِّيّ: «شيخنا الإمام العلَّامة الأعظم أبو عبد الله.. كان بيَّض الله غرَّته رجلًا جميلًا من الرجال، جهوري الصوت، ذرب اللسان، مفوَّهًا في المقال، متفنِّنًا في علوم كثيرة، فقيهًا متكلِّمًا أصوليًّا نحويًّا منطقيًّا، صنَّف وأجاد..»[2].

إنَّ الفاضل المقداد يتبوَّأ منزلة رفيعة عند علماء الشيعة، وكذا عند العامَّة، فله بينهم شهرة ملحوظة، ولذا نرى من العامَّة من عدَّ كتاب (كنز العرفان في فقه القران) في جنب الكتب المصنَّفة في آيات الأحكام، وخصَّص بعضهم، فصلًا في ذِكر تفاصيل هذا الكتاب بالبحث والنقد[3].

و قال خير الدِّين الزَّركليّ: «مقداد بن عبد الله.. فقيه إماميّ، من تلامذة الشَّهيد الأوَّل محمَّد بن مكِّي، وفاته بالنَّجف..»[4].

منهج المقداد في التدوين والتأليف

التزم الفاضل المقداد المتن في التنظيم والترتيب في شرحه على: (إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين)، و(الاعتماد في شرح واجب الاعتقاد)، و(الأنوار الجلاليَّة في شرح الفصول النصيريَّة)، الأوَّل والثاني للعلَّامة، والثالث للمحقِّق نصير الدين الطوسيّ.

(١) التَّنقيح: ٣/ ٢٤٥.
(٢) روضات الجنَّات: ٧/ ١٧٥.
(٣) التفسير والمفسِّرون (الذهبيّ): ٢/ ٤٦٥.
(٤) الأعلام: ٨/ ٢٠٦.

وأمَّا كتابه (اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة)، فله منهجٌ خاصٌّ، وله خصوصيَّة تميِّزه عن سائر كتبه الكلاميَّة.

نطالع في (شرح واجب الاعتقاد) قسمَين، الأوَّل: اختصَّ بالمباحث الكلاميَّة، وشمل أربعة مباحث: التوحيد، والعدل، والنبوَّة، والإمامة.

واختصَّ القسم الثاني في المباحث الفقهيَّة، وهي: الطهارة، والزكاة، والصوم، والخمس، والحج والعمرة، والجهاد.

وأمَّا كتاب: (إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين)، فيقع في ثلاثة عشر فصلًا، وهو يتابع فيه المتن الذي صنَّفه العلَّامة، ففي الفصول الأربعة، الأولى فيها بيان المفاهيم والمباحث الفلسفيَّة، وأمَّا سائر الفصول فهي مباحث كلاميَّة من التوحيد إلى المعاد.

وكان أسلوب الفاضل المقداد شرح العبارة، ونقل الأقوال الموجودة في المسألة، وأحيانًا ينقل جميع الأقوال المطروحة في الموضوع، وأنَّه يبيِّن رأيه وتحقيقه واجتهاده تحت عنوان: (تحقيق) و(نظر)، ممَّا يُنبئُ عن تسلُّطه على المباحث الفلسفيَّة والكلاميَّة المختلفة، وعلى سبيل المثال: حقَّق في مبحث الاشتراك المعنويّ للوجود، (قاعدة الواحد لا يصدر منه أكثر من واحد)، وبيَّن نظره في القاعدة[1].

أمَّا كتاب (الأنوار الجلاليَّة في شرح الفصول النصيريَّة)، فيقع في أربعة فصول: التوحيد، والعدل، والنبوَّة، والإمامة، والمعاد، وفيه أمَّهات المسائل الكلاميَّة.

أمَّا كتابه: (اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة)، فيبدأ في مباحث فلسفيَّة، مثل: تقسيم المعلوم إلى موجودٍ ومعدومٍ، والموجود إلى ذهنيّ وخارجيّ، والخارجيّ إلى

(١) راجع: إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين: ٤١، ١١٨، ١٧٠.

واجبٍ وممكنٍ، وبداهة تصوُّر الوجود، والاشتراك المعنويّ للوجود، وزيادة الوجود على الماهيَّة في الذهن، والجوهر والعرض، وتقسيم ذلك.. ثُمَّ يتناول المباحث الكلاميَّة، فيشرع في إثبات الصانع، ثُمَّ إثبات الصفات والأفعال الإلهيَّة، ثُمَّ مباحث النبوَّة، والإمامة، وبيان النظريَّة الشيعيَّة في المقام.

يشير الفاضل المقداد في هذا الكتاب، في بداية كلِّ فصلٍ، إلى نظريَّة الفلاسفة في المقام، إذا كان لهم قول في المسألة، بقوله: «طريقة الحكماء»، فينقل النظريَّة والأدلَّة عليها، ثُمَّ ينقل آراء المتكلِّمين بقوله: «طريقة المتكلِّمين»، وينقل أدلَّتهم في المسألة، وبعد هذا يطرح ما عنده من رأيٍ اجتهاديٍّ في المسألة، وتطبيق ذلك على سبيل المثال: في مبحث إثبات الصانع، والتوحيد، وضرورة وجود الأنبياء[1].

أثر العلوم المختلفة في منهج الفاضل المقداد

عبر مراجعة لآثار الفاضل المقداد» يتضح أنّه كان في اكثر العلوم صاحب نظر، واستفاد من ذلك في المباحث الكلاميّة، ولغرض بحث هذه المسألة يفترض بنا أن نقسِّم العلوم إلى عقليَّةٍ ونقليَّةٍ، ونبحث كلَّ واحدٍ منها على جانبٍ.

أ. العلوم العقليَّة:

١. المنطق:

مع أنَّ الفاضل المقداد لم يدوِّن كتابًا مستقلًّا في المنطق، ولكن نراه في مواضع مختلفة يبحث في جملة من المسائل المنطقيَّة، وأنَّه يُفيد منها في المباحث ذات الصلة بالفلسفة والمنطق[2].

(١) لاحظ: اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ١٥٢، ٢٩٣، ٢٤١.
(٢) لاحظ: الاعتماد شرح واجب الاعتقاد: ٤٢.

وأنّه يشرح ويبيّن مفاهيم منطقيَّة في مواطن مختلفة من كتبه، فكثيرًا ما نلاحظه في كتبه الكلاميَّة يشير إلى مباحث منطقيَّة في تعريف العلم والمعلوم والاعتقاد والنظر(١).

ويبحث أيضًا في جملة من المباحث الفلسفيَّة بعض المفاهيم المنطقيَّة، من قبيل: الكلّيّ والجزئيّ والمصداق(٢).

وعلى سبيل المثال يبيِّن تعريف الدليل، وأقسامه، وأقسام الدليل بلحاظ الصورة إلى تمثيلٍ واستقراءٍ وقياسٍ، وبلحاظ المادَّة إلى برهانٍ وجدلٍ وخطابةٍ وشعرٍ ومغالطةٍ، ويقسِّم البرهان إلى لمِّيّ وإنِّيّ(٣).

ويتناول تقسيم العلم إلى ضروريّ ونظريّ، وأقسام القضايا البديهيَّة الست(٤).

٢. نظريَّة المعرفة:

لم تكن نظريَّة المعرفة سابقًا بهذا العنوان، ولكن يمكن ملاحظتها في عبارات العلماء مبثوثة وموزَّعة، كما نطالعه في آثار الفاضل المقداد، فيذكر جملة من مفاهيم هذا العلم (نظريَّة المعرفة)، على سبيل المثال بحثه في النظر والفكر(٥).

٣. الفلسفة:

طرح الفاضل المقداد مباحث فلسفيَّة في مواضع مختلفة من أسفاره، وأحيانًا ينقد ما ذكره الفلاسفة، على سبيل المثال في مبحث أنَّ الوجود مشترك معنويّ والدليل عليه:

(١) راجع: الأنوار الجلاليَّة: ٢٠.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٦٣.
(٣) انظر: اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٨٥-٨٦.
(٤) راجع المصدر نفسه: ١٣٤.
(٥) لاحظ: اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٤٢، ٨٢، وإرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين: ٩٧، ١٠٦.

«أنَّا نقسِّمه إلى الواجب والممكن والجوهر والعرض، فلولا اشتراكه؛ لما حسن منَّا ذلك، كما لا نقسِّم الحيوان إلى الإنسان والحجر»[١].

واستدلَّ على الوجود الذهنيّ:

«فإنَّا نحكم على موضوعات معدومة في الخارج، بل ممتنعة بأحكام إيجابيَّة، فلا بدَّ من وجود المثبت له ضرورة وليس خارجًا، فيكون ذهنًا، وذلك هو المطلوب»[٢].

وبحث في ضوء نظريَّات الفلاسفة المواد الثَّلاث[٣]، ومسألة السبق واللحوق، وأقسام السبق[٤].

ونقد الفلاسفة في مبحث القدم والحدوث، وقال: «القديم عندنا هو الله تعالى لا غير..»[٥].

وتناول أقوال الفلاسفة في مبحث الواحد والكثير، و العلَّة والمعلول[٦].

وذكر أدلَّة الفلاسفة على التوحيد وضعفها، واعتبر أدلَّة المتكلِّمين أقوى[٧].

ورجَّح الفاضل المقداد في جملة من المسائل أدلَّة الفلاسفة على المتكلِّمين على سبيل المثال: في بحث إثبات وجود الله تعالى، بعد تقرير دليل الحكماء، وهو برهان الإمكان، قال:

(١) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٨٨.
(٢) المصدر نفسه: ٨٩.
(٣) راجع المصدر نفسه: ٩٠.
(٤) المصدر نفسه: ٩٧.
(٥) المصدر نفسه: ٩٩.
(٦) المصدر نفسه: ١٠٦.
(٧) المصدر نفسه: ٢٠٥.

«هذه طريقة شريفة»[1].

كما نقل أدلَّة الفلاسفة في مبحث التوحيد، وعبَّر عنها «طريق الحكماء»[2].

وقال في مبحث الصفات لله تعالى:

«أثبت الحكماء له صفات لازمة:

الأوَّل: كونه جـوادًا، أي يفيد ما ينبغي إفادته لا لمقابلة عوض؛ لأنَّه أفاد الممكنات الوجود من غير استعاضة شيء منها، من صفة حقيقيَّة أو إضافيَّة.

الثـاني: كونـه ملكًا؛ لتحقُّـق صفة الملوكيَّة بالنسـبة إليه، وهي غنـاه المطلق في ذاته وصفاتـه، وكـون كلِّ شيء مفتقرًا إليه؛ للزوم الإمكان له، وأنَّه لا يوجد إلَّا بسـببه، فله ذات كلِّ شيء.

الثالث: كونه تامًّا وفوق التمام»[3].

وأشار في مبحث ضرورة وجود النبيّ إلى أدلَّة الفلاسفة[4].

٤. اصول الفقه[5]:

يُعدُّ أحد مصادر المعرفة في علم الكلام، هو الكتاب والسـنة، وجملة منه يبتني على قواعـد أصول الفقـه، فالمتكلِّم صاحب الاطِّلاع على جملة من المعـارف، يُعمِل ما عنده

(١) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ١٥٣.
(٢) المصدر نفسه: ٢٠٥.
(٣) المصدر نفسه: ٢٠٦.
(٤)) لاحظ: المصدر نفسه: ٢٤١.
(٥) ينتمي علم الاصول بنحوٍ ما إلى العلوم العقليَّة، ولذا يقول الشـهيد مطهَّري: «يُعدُّ علم أصول الفقـه مـن العلوم الممتعة والجميلة؛ لما يحتوي عليه من دقَّة عقليَّة تسـتهوي أذهان الطلَّاب، فهو يوازي المنطق والفلسفة في الرياضة الفكريَّة، وتدريب الطالب على الدقَّة الذهنيَّة، كما أنَّ طلَّاب العلوم القديمة يرون لعلم الأصول يدًا طولى في دقَّة آرائهم. كليَّات علوم اسلامي: ٢٨٤.

مـن قواعد في حالة الضرورة، وهذا ما فعله (الفاضل) في جملة من الوارد، فهو يعتبر في مصـاف الفقهاء الكبار، وله تسـلُّط تامٌّ على مباحث وقواعد علم الأصول، على سـبيل المثال، في مبحث إثبات الإمامة لأمير المؤمنين عليه السلام، استدلَّ بآية الولاية، قال:

«الأوَّل: قولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾، و(إنَّـما) للحصر، نقلًا عن أهل اللغـة، ولأنَّ (إنَّ) للإثبات، و(ما) للنفـي، فـإذا ركِّبتا وجب بقاء ذلك، وإلَّا لـزم النقل، وهو خلاف الأصـل[1]، فإمَّا أن يـردا عـلى واحد، وهو محال، أو لنفـي المذكور وإثبات غيره، وهو باطـل إجماعًا، فتعيَّن العكس، والوليّ هنا الأولى بالتصرُّف لغةً، و هو شـائع، وعرفًا نحو: وليّ العهد، وشرعًا كقوله عليه السلام: «**أيُّما امرأة نُكِحت بغير إذن وليِّها، فنكاحها باطل**»، فيكون حقيقة، فإن ورد في غيره يكون مجازًا، وإلَّا لزم الاشتراك، وهو خلاف الأصل، ولأنَّ غير ذلك من معانيه غير صادق..»[2].

لاحظنـا في هـذا النصّ كيـف اعتمـد الفاضل على قاعـدة مقـرَّرة في علم أصول الفقه.

(١) لبيان هذه القاعد الأصوليَّة، يقول الشيخ المظفَّر: «أصالة عدم التقدير، وموردها ما إذا احتمل التقدير في الكلام، وليس هناك دلالة على التقدير، فالأصل عدمه.
و يلحـق بأصالـة عدم التقديـر أصالة عدم النقـل، وأصالة [عدم] الاشـتراك، وموردهما ما إذا احتمـل معنًـى ثانٍ موضوع لـه اللفظ، فـإن كان هذا الاحتـمال مع فرض هجـر المعنى الأوَّل، وهـو المسـمَّى بـ(المنقـول)، فالأصل عدم النقـل، وإن كان مع عدم هذا الفرض، وهو المسـمَّى بـ(المشـترك)، فالأصل عدم الاشـتراك؛ فيحمل اللفظ في كلٍّ منهما عـلى إرادة المعنى الأوَّل ما لم يثبـت النقل والاشـتراك. أمَّا إذا ثبت النقـل، فإنَّه يحمل على المعنى الثاني، وإذا ثبت الاشـتراك، فإنَّ اللفظ يبقى مجملًا لا يتعيَّن في أحد المعنَيَين إلَّا بقرينة على القاعدة المعروفة في كلِّ مشـترك». أصول الفقه: ٢٣.

(٢) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٣٣٧.

وذكر في معنى الولي: «وَالَّذِينَ آمَنُوا هنا بعض المؤمنين لعود الضمير إلى الكلِّ؛ لأنَّ قبله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ والضمير لهم، فلو كان المراد هنا الكلُّ، لكان كلُّ واحدٍ وليًّا لنفسه، ولوصفهم بإيتاء الزكاة حال الركوع، إذ الجملة حالية فيكون مدلول الآية: لا أولى بالتصرُّف فيكم إلَّا الله و رسوله والذي آتى الزكاة حال ركوعه من المؤمنين، وذلك الشخص هو عليّ عليه السلام؛ لاتِّفاق أكثر المفسِّرين عليه، ولأنَّ كلَّ من قال: المراد البعض، قال: هو عليّ عليه السلام، ولأنَّه داخل في العموم قطعًا، فيكون هو الإمام، إذ ليس مرادنا بالإمام إلَّا الأولى بالتصرُّف، وهو المطلوب.

لا يُقال: يلزم المجاز في حمل الجمع على الواحد، والمضارع، وهو «يقيمون ويؤتون»، على الماضي.

لأنَّا نقول: أمَّا الأوَّل فلازم لكم أيضًا، فإنَّ حملها على العموم باطل، لما قلنا فيكون البعض، فيكون إطلاق الكلِّ على البعض، لكن مجازيًّا تسمية المعظم بالجمع، وهو كثير. وأمَّا الثاني فممنوع، لجواز أن يراد به الحال، فإنَّه حقيقة فيه عند الكوفيّ، ومشترك عند البصريّ»[1]؛ لأنَّه ثبت في علم الأصول الأصل عدم الاشتراك، «فالأصل عدم الاشتراك؛ فيحمل اللفظ في كلٍّ منهما على إرادة المعنى الأوَّل ما لم يثبت النقل والاشتراك، أمَّا إذا ثبت النقل، فإنَّه يحمل على المعنى الثاني، وإذا ثبت الاشتراك، فإنَّ اللفظ يبقى مجملًا لا يتعيَّن في أحد المعنَيين إلَّا بقرينة على القاعدة المعروفة في كلِّ مشترك»[2].

ومن الأدلَّة التي استدلَّ بها على إثبات أفضليَّة أمير المؤمنين عليه السلام حديث الطير:

(١) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٣٣٨.
(٢) أصول الفقه: ٢٣.

«خبر الطائر، وهو قوله ﷺ: «**اللهمَّ ائتني بأحبِّ خلقك إليك، يأكل معي من هذا الطائر**»، فجاء عليّ عليه السلام، والخبر مشهور متواتر، ومعلوم أنَّ المحبَّة هي كثرة الثواب التي هي عبارة عن الأفضليَّة، فمن كان أحبُّ فهو أفضل.

لا يُقال: لفظة «أحب» ليست باقية على العموم؛ إذ يحتمل أن يكون أحبّ في كلِّ الأمور وفي بعضها، فلا يكون دليلًا على الأفضليَّة.

لأنَّا نقول: هذا باطل؛ لأنَّه خلاف الظاهر، فإنَّ قوله: «أحبَّ خلقك إليك» يقتضي العموم لمكان الإضافة، فجرى مجرى قولنا: زيد أفضل الناس، فإنَّه يقتضي العموم..»[1].

٥. العلوم الطبيعيَّة:

تعرض الفاضل المقداد في بعض أبحاثه الكلاميَّة إلى مسائل العلوم الطبيعيَّة، وبيَّن فيها تحقيقه في هذا المجال، فعلى سبيل المثال في إثبات صغرى برهان النظم بينها عبر العلوم الطبيعيَّة[2].

وأشار في جملة من مباحثه إلى تعريف اللون، والطعم وأنواعه، والمزاج وأنواعه، والرائحة وأنواعها، والحرارة والبرودة، واليبوسة والرطوبة[3].

٦. الفلك والنجوم:

بحث الفاضل المقداد كغيره من المتكلِّمين المسلمين في مبحث إثبات المعاد، إمكان خلق علم آخر، وتناول مبحثًا فلكيًّا؛ إذ إنَّهم في ذلك الزمان كان لهم اطِّلاع على علم الفلك، وكان الاعتقاد السائد أنَّ العالم كرويّ ومتشكِّل من تسع كرات، واستدلَّ

(١) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٣٨٣.
(٢) الاعتماد في شرح واجب الاعتقاد: ٥٩.
(٣) المصدر نفسه.

بعضهم على عدم إمكان خلق عالم آخر في عرض هذه الأفلاك التسعة، ونقد هذه النظريَّة جملة من المتكلِّمين، ومنهم الفاضل المقداد[1].

ونقل في مبحث أفضليَّة الأنبياء على الملائكة، نظريَّات مختلفة، ومنها قول المنجِّمين، ونقد ما يذهبون اليه:

«جماعة يسندون تلك الحوادث إلى الكواكب، وهم المعبَّر عنهم بالمنجِّمين.. بوجود أشياء عند حلول كواكب معيَّنة في بروجها، فظنُّوا استنادها إلى ذلك، فجعلوا الكواكب نفسه فاعلًا بشرط الحلول، وبعضهم جعلها فاعلة بالإيجاب، وبعضهم بالاختيار.

وأنكر ذلك المسلمون ومحقِّقو الحكماء..»[2].

وتعرَّض في مبحث طول عمر الإمام المهدي عليه السلام، نظريَّة للمنجِّمين، ونقدها:

«قال أصحاب الأحكام النجوميَّة: إنَّ العمر لا يزيد على مئة وعشرين..»[3].

ب. العلوم النقليَّة:

١. الأدب:

تقدَّم في بداية المقال أنَّ الفاضل المقداد ألَّف كتابًا مستقلًّا في علمَي المعاني والبيان، وعبر نظرة إلى آثار الفاضل المقداد، يتَّضح أنَّه كان أستاذًا في الأدبيَّات أعمّ من اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان، ونقرأ له في كتبه الكلاميَّة كيف يشرح ويوضِّح الخطبة ومعانيها اللغويَّة وتراكيبها البلاغيَّة.

(١) لاحظ: اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٤١٤، وإرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين: ٤٠٢.

(٢) راجع: اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٣١٦.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٣٤٩.

على سبيل المثال، ما بحثه مفصَّلًا في معنى وتركيب «بسم الله» في كتابه إرشاد الطالبين[١].

وأنَّه في أكثر كتبه الكلاميَّة يبدأ بالمعنى اللغويّ للمفاهيم في المسالة، ثُمَّ يذكر معناها الاصطلاحيّ، على سبيل المثال: المعنى اللغويّ للنبيّ «النبيُّ لغةً مأخوذ من الإنباء، وهو الإخبار، أي مخبر عن الله تعالى»[٢]، وفي مبحث التكليف «التكليف، وهو لغةً مشتقٌّ من كُلفة أعني المشقَّة..»[٣]، وفي مبحث الإمامة لأمير المؤمنين عليه السلام في آية الولاية: «والوليُّ هنا الأولى بالتصرُّف لغةً، و هو شائع، وعرفًا..»[٤].

٢. علم الحديث:

لم يبحث الفاضل المقداد في كتبه الكلاميَّة بحثًا مستقلًّا في الحديث، ولكن استند في مباحثه النقليَّة إلى جملة من المسائل ذات العلاقة بعلم الحديث، على سبيل المثال: أشار إلى الخبر الواحد والتواتر، وفي مبحث معجزات النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله قال: إنَّها وصلت لنا بالتواتر[٥].

واستدلَّ بالتواتر بعد فناء هذا العالم يخلق عالم جديد[٦]، كما نقد ما ذهب إليه بعض العامَّة من إثبات خلافة أبي بكر بخبر الواحد[٧].

(١) انظر: إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين: ٢٩٥.
(٢) لاحظ: المصدر نفسه.
(٣) إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين: ٢٧١.
(٤) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٣٣٧.
(٥) المصدر نفسه: ٣٣٧.
(٦) المصدر نفسه: ٤١٤.
(٧) المصدر نفسه: ٤١٦.

٣. التاريخ:

أضفى الفاضل المقداد صبغة تاريخيَّة على جملة من المباحث، كمبحث الإمامة والنبوَّة الخاصَّة، فضلًا عن نقله للآيات والروايات يشير لما ورد في التاريخ، كما في إثبات المعجزات للنبيِّ الأعظم صلى الله عليه وآله[١]، وكذا معجزات وكرامات أمير المؤمنين عليه السلام، وما سطَّره أمير المؤمنين عليه السلام في جهاد الكفَّار والمنافقين[٢]، ونقل جملة من المطاعن في الخلفاء[٣].

٤. مكانة المعرفة العقليَّة في منهج الفاضل المقداد:

تقسَّم مسائل علم الكلام بنحوٍ عامٍّ إلى مسائل ما قبل الوحي، والمراد منها التي لا تحتاج إلى الوحي في إثبات موضوعها، وتُقدَّم في مقام الإثبات على الوحي.

والقسم الثاني يقسَّم أيضًا على قسمَين:

- جملة من المسائل تتوقَّف على الوحي، ولا يمكن للعقل إثباتها، كالمسائل الجزئيَّة في المعاد، كـ: الصراط، والميزان، والكتاب.. وغيرها.
- هناك جملة ممكن إثباتها عن طريق العقل والنقل، مثل: ضرورة وجود الإمام، والعصمة، وأفضليَّة الإمام عليه السلام، يقول قدس سره في الدليل على وحدانيَّة الله تعالى:

«والدَّليل على أنَّه تعالى واحد: من العقل والنَّقل؛ لأنَّ النَّقل يصحُّ الاستدلال به على إثبات هذه الصِّفة؛ لأنَّ كلَّ صفة لا تتوقَّف صحَّة النَّقل عليها، يصحُّ إثباتها بالعقل والنَّقل؛ كهذه الصِّفة، ونفي الرؤية عنه تعالى، وما يتوقَّف صحَّة النَّقل عليه، مثل: كونه

(١) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٣٣٥
(٢) المصدر نفسه: ٢٨٥
(٣) المصدر نفسه: ٣٣٦، ٣٤٠.

قادرًا عالمًا حكيمًا لا يصحُّ إثباته بالنَّقل، بل بالعقل خاصَّة»[1].

والبحث في مكانة العقل في منهج الفاضل المقداد متعلِّق في القسم الثالث؛ لأنَّ القسم الأوَّل والثاني واضح، وغير قابل للشكِّ والإنكار، وطريقة الفاضل المقداد أنَّه يبيِّن أوَّلًا الدليل العقليّ، وكثيرًا ما يقبله، ثُمَّ يذكر الدليل النقليّ في المقام.

ونلاحظ هذا الأسلوب عند سائر المتكلِّمين في إثبات المسائل التي قبل الوحي بطريق العقل والبراهين، على سبيل المثال: في إثبات الله تعالى[2]، وأوصافه[3]، والمعاد[4].

وأمَّا المسائل التي يتوقَّف إثباتها على النقل، فهو كسائر علم الكلام عند الشيعة، اعتمد في إثباتها على الآيات والروايات.

وأنَّه اعتمد في المسائل من النوع الثالث على الأدلَّة العقليَّة، ونطالع ذلك في الموارد التي فيها إمكانية إثباتها بنحو البرهان العقليّ، ثُمَّ بعد ذلك يأتي بالأدلَّة النقليَّة، وعلى سبيل المثال:

إثبات وجوب التكليف، وضرورة وجود النبيّ صلى الله عليه وآله، وضرورة وجود الإمام عليه السلام وعصمته وأفضليَّته[5].

وعبر البحث والتحليل في آثار الفاضل المقداد، نحصل على النتيجة الآتية: إنَّه استفاد من العقل والتفكير العقليّ في أربع مراحل:

(١) الاعتماد في شرح واجب الاعتقاد: ٦٥.
(٢) لاحظ: اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ١٥٢.
(٣) المصدر نفسه: ١٩٧.
(٤) المصدر نفسه: ٤٢١.
(٥) لاحظ: اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٢١١، ٢١٢، ٢١٩، ٢٢١، ٢٤٠، ٢٤٤، ٣٢٦، ٣٣٠، ٣٣٣، ٤١٤.

١. إثبات العقائد.

٢. استنباط العقائد.

٣. الدفاع عن العقائد ورد الشبهات.

٤. تأويل الظاهر.

أمَّا إثبات واستنباط العقائد، فالمثال المتقدِّم من هذا النوع.

وأمَّا الدفاع عن العقيدة وردّ الشبهات التي ترد على العقيدة الشيعيَّة، فإنَّه كثيرًا ما يورد في هذا السياق الأدلَّة العقليَّة، على سبيل المثال، في مبحث (نفي الحيز) عن ذات الله تعالى، وهي شبهة طرحتها الفرقة الكراميَّة، إذ عرضها ونقدها[١]، وكذا في مبحث القدرة الإلهيَّة وعمومها، نقل بعض الأقوال للمخالفين في المسالة، يقولون: إنَّ القدرة لا تتعلَّق بكلِّ شيءٍ، ونقدها الفاضل بالأدلَّة العقليَّة[٢]، وكذا في بحث الحسن والقبح، فطرح نظريَّة علماء الشيعة في البدء، ثمَّ نقل آراء المخالفين، وأشار إلى شبهاتهم التي ذكروها على ما ذهب إليه الشيعة، وأجاب عنها بالأدلَّة العقليَّة[٣].

أمَّا تأويل الظاهر، فالبحث في آثار الفاضل المقداد في هذا المجال، يسمح لنا بالقول إنَّ السيوري يعتقد بحجيَّة العقل، ويرجِّحه على النقل، ويذهب إلى القول إنَّه إذا وقع تعارض بين العقل والنقل الصريح، ينبغي تأويل النصِّ، وإذا لم يمكن تأويله، نضعه جانبًا، وإلَّا يرجَّح العقل على النقل الصريح، والشاهد على هذا القول ما بحثه في الصفات الخبريَّة في القرآن، وعصمة الأنبياء، ففي الآيات التي تَنسِب الذنوب للأنبياء ظاهرًا أوَّلها ووجَّهها، وطرح نحو انسجام بينها وبين الأدلَّة العقليَّة، على سبيل المثال في

(١) لاحظ: اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ١٦٢.
(٢) المصدر نفسه: ١٩٧.
(٣) المصدر نفسه: ٢١٢.

مبحث رؤية الله تعالى[1]، ومجيء الله تعالى، وحاول أن يؤوِّل الآيات ذات الصلة بهذا البحث.

وبالجملة: يمكن أن يُقال أنَّ الفاضل السيوري اعتمد في مباحثه الكلاميَّة على العقل النظريّ والعمليّ، كما أنَّه في المباحث ذات العلاقة بالفلسفة، استفاد من العقل النظريّ في إقامة البراهين، واعتمد على العقل العمليّ في أكثر المباحث المرتبطة بالفعال الإلهيَّة مثل: الحسن والقبح العقليّ، والحكمة الإلهيَّة والغرض الإلهيّ، والنبوَّة وأوصاف النبيّ صلى الله عليه وآله كـ: العلم والعصمة، ومباحث الإمامة، مثل: أوصاف الإمام عليه السلام، وبعض مسائل المعاد.

٥. المعرفة النقليَّة في المنهج الكلاميّ للفاضل المقداد:

في ضوء ما تقدَّم، تبيَّن أنَّ جملة من المسائل يمكن أن تثبت عن طريق العقل والنقل، والطريق العقليّ أقلّ من النقليّ، والصبغة النقليَّة أكثر، أو أن بعض المسائل لا سبيل للعقل على إثباتها، وإنَّما يختصر فيها على الدليل النقليّ، مثل: الإمامة الخاصَّة (إثبات إمامة أمير المؤمنين عليه السلام)[2]، وإثبات إمامة الأئمَّة عليهم السلام بعد أمير المؤمنين عليه السلام[3].

وانتهج الفاضل المقداد في هذا النحو من المسائل الاستفادة من الآيات القرآنيَّة، على سبيل المثال: إثبات إعجاز القران استند بآيات التحدِّي[4]، وكذا اعتمد على ذلك في إثبات النبوَّة بشكلٍ عام نبوَّة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله[5].

(١) إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين: ٢٤٤.
(٢) لاحظ: اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٣٣٤، ٣٤٢.
(٣) المصدر نفسه: ٣٤٤، ٣٤٥.
(٤) المصدر نفسه: ٢٨٥.
(٥) المصدر نفسه: ١٩٣.

والجدير بالذِّكر أنَّ السيوريّ عندما يعتمد على القرآن، ويأتي بالآية كدليلٍ نقليّ، ثمَّ يذكر شأن النزول، ويبيِّنه من مصادر العامَّة والخاصَّة، ثمَّ يبيِّن رأيه في المسألة، على سبيل المثال: في مبحث الإمامة يثبت إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، وأفضليَّته بآية الولاية، وأشار إلى شأن النزول والأحاديث ذات العلاقة بهذا الموضوع، وفي خاتمة البحث ينقل الشبهات ويردُّ عليها(١).

وكذا اعتمد الروايات المتواترة في معجزات النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله(٢)، وإمامة أمير المؤمنين عليه السلام(٣)، وأنَّه قدس سره قسم النصوص في إثبات الإمامة إلى قسمين: نصٌّ جليّ ونصٌّ خفيّ، والنصُّ الجليّ لا يحتاج إلى ضميمة، والخفيّ في مقام الاستدلال يحتاج إلى ضميمة(٤).

واستدل قدس سره في إثبات بعض المسائل الكلاميَّة على الإجماع، على سبيل المثال: في بحث الإمامة: «المسلك السادس: كلَّما لم يكن العبَّاس وأبو بكر صالحين للإمامة، وجب أن يكون عليّ عليه السلام إمامًا، لكنَّ المقدَّم حقٌّ والتالي مثله، أمَّا حقيَّة المقدَّم؛ فلقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهما كانا ظالمين بتقدُّم كفرهما، فلا يصلحان.

وأمَّا بيان الشرطيَّة: فلعدم ادِّعاء الإمامة لغير هذه الثلاثة، وقد بان عدم صلاحيَّتهما، فلو لم تتعيَّن إمامته عليه السلام، لزم إمَّا عدم القول بالإمامة وهو باطل بما تقدَّم، أو إثبات إمامة رابع، وهو باطل بالاجماع.

إن قلت: الشرطيَّة ممنوعة، فإنَّ الأنصار قالوا: منَّا أمير ومنكم أمير، وأقاموا سعد ابن عبادة.

(١) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٣٣٧
(٢) المصدر نفسه: ٢٨٥.
(٣) المصدر نفسه: ٣٣٧.
(٤) المصدر نفسه: ٣٤٧.

قلنا: حصل الإجماع على بطلان قولهم وسقوطه[1].

وكذا قال في بحث وجود الغيبة للإمام المهدي عليه السلام:

«لـمَّا دلَّ الدليـل على إمامة سـيِّدنا المنتظر عليـه الصلاة والسَّـلام، وأنَّ كلَّ زمان لا بدَّ فيه من إمام معصوم وجب وجوده وبقاؤه من حين موت أبيه الحسـن عليه السلام إلى آخر زمـان التكليف، وإلَّا لزم إمَّا القـول بوجوب إمامة معصوم غيره، وهو باطل بالإجماع، أو خلوِّ زمانٍ عن إمام، وهو باطل بما تقدَّم، وبدلالة الأخبار المتواترة على وجوده وبقائه وغيبته وظهوره بعد ذلك، فيكـون القول بوجوده حقًّا، وهو المطلوب، وقد تقدَّم وجه لطفيَّته حال غيبته، فلا وجه لإعادته»[2].

٦. أسلوب مواجهة الفاضل المقداد مع آراء الفرق الكلاميَّة:

نقل الفاضـل المقداد في اكثر مباحثه نظريَّات وأقوال أغلب المتكلِّمين والفلاسـفة والمذاهب والنحل، ونَقَدها، ويذكر ويحلِّل قدس سره في مباحثه المسـائل الخلافيَّة بين الفلاسفة والمتكلِّمين، وكذا يحقِّق وينقد في المسـائل الكلاميَّـة الخلافيَّة بين الفرق الكلاميَّة، مثل: الإماميَّـة، والمعتزلـة، والأشـاعرة، والكراميَّـة، والزيديَّة، والإسـماعليَّة، ثـمَّ يطرح ما يرتضيه في المقام، على سـبيل المثال: في مبحث رؤية الله تعالى، نقل الأقوال المختلفة فيه، وينقل أدلَّة الكراميَّة والمشبِّهة، وينقدها ويثبت إبطالها[3]، وكذا في بحث نفي (الاتِّـحاد) نقل ونقد نظريَّة فرفريوس والنصارى والمتصوِّفة، ويوضِّح النظريَّة المختارة في المقام[4]، ونقل في بحث الاشـتراك المعنويّ للوجود نظريَّة المعتزلة، والأشاعرة، والحكماء، وأثير

(١) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٣٤٧.
(٢) المصدر نفسه: ٣٤٦.
(٣) إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين: ١٣٠
(٤) المصدر نفسه: ٢٣٨.

الديـن الأبهريّ، والعلّامة الحِـلّيّ، والمحقّق الطوسيّ، ويذكر الـرأي المختار[١]، وكذا في بحث الإمامة وتعريفها وضرورتها.

ويبيّن رأي الحشـويَّة، والخوارج، والمعتزلة، والأشـاعرة، والزيديَّة، والإسماعيليَّة، والإماميَّة، الراونديَّة، والكيسانيَّة[٢].

ونلاحظ في آثار الفاضل المقداد الكلاميَّة إشارته إلى جملة من الفلاسفة والمتكلِّمين، عـلى سـبيل المثال: أفلاطـون، وأرسـطو،[٣] وابـن سـينا[٤]، والنظام[٥]، وفخـر الدين الـرازي[٦]، والغـزّاليّ[٧]، والنجّار[٨]، وأبو الحسـن الأشـعريّ، والقاضي عبـد الجبّار، والاسـفيراينيّ[٩]، وأبـو هذيـل[١٠]، والخواجـة نصير الديـن الطوسـيّ[١١]، والعلّامة الكاشانيّ[١٢]، والسيِّد المرتضى[١٣].

وكان أسـلوب الفاضل المقداد في نقل الآراء ونقدها في غاية الأدب وأمانة النقل، ولم يخرج عن طريق الإنصاف، وكان ميزانه في النقد والترجيح الدليل والبرهان.

(١) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ١٥٧-١٥٨.
(٢) إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين: ٣٨.
(٣) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ٣٢٠.
(٤) المصدر نفسه: ١٢٠، ١٣٠، والأنوار الجلاليَّة: ٦٤.
(٥) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ١٣٠.
(٦) المصدر نفسه: ١٦٤.
(٧) المصدر نفسه: ١٨٤.
(٨) المصدر نفسه: ٢٠١.
(٩) المصدر نفسه: ٢٠١.
(١٠) المصدر نفسه: ٢١٢.
(١١) المصدر نفسه:٢٣٣.
(١٢) المصدر نفسه: ١٥١.
(١٣) المصدر نفسه: ١٥٢، والأنوار الجلاليَّة: ٥٧.

وكان منهجه البرهان والجدال بالتي هي أحسن، وأحيانًا يُظهر حقيقة نسبة القول، كما في مسـالة القدرة، وما نُسِب إلى الفلاسـفة من أنَّهم يحدُّون قدرة الله تعالى، فيصحِّح تلك النسبة[1].

والخلاصة: يُعدُّ الفاضل المقداد من كبار علماء الشيعة، ومنهجه الكلاميّ هو منهج المحقِّق نصير الدين الطوسيّ، والعلَّامة الحِلِّيّ، ويعتبر ممَّن حفظ الكلام الشيعيّ، وله أثر مهم في ذلك.

وكانـت أدوات منهجـه العقـل والنقل، وبوجهٍ عـامٍّ، كان اتِّجاهه النقـليّ أكثر من العقليّ.

(١) اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة: ١٩٦.

المراجع

١. أصول الفقه، الشيخ المظفَّر، انتشارات إسماعليان، قم.

٢. أعيان الشيعة، السيِّد محسن الأمينيّ، تعارف للمطبوعات، لبنان.

٣. الأنوار الجلاليَّة في شرح الفصول النصيريَّة، الفاضل المقداد، دار إحياء التراث العربيّ، لبنان.

٤. الأعلام، خير الدين الزركليّ، دار الملايين، لبنان.

٥. اللوامع الإلهيَّة في المباحث الكلاميَّة، المقداد السيوريّ، دفتر تبليغات اسلامي، قم، إيران.

٦. الاعتماد في شرح واجب الاعتقاد، الفاضل المقداد، مجمع البحوث، مشهد.

٧. إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين، الفاضل المقداد، نشر مكتبة السيِّد المرعشيّ، قم.

٨. أمل الآمل، الحرُّ العامليّ، النجف.

٩. بحار الأنوار، الشيخ المجلسيّ، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، لبنان.

١٠. التفسير والمفسِّرون، محمَّد حسين الذهبيّ، دار إحياء التراث، لبنان.

١١. تنقيح المقال، عبد الله المامقانيّ، نشر مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام، قم.

١٢. روضات الجنَّات في أحوال العلماء والسادات، مكتبة إسماعليان، قم.

١٣. ريحانة الأدب، محمَّد عليّ المدرِّس التبريزيّ، نشر خيام، طهران.

١٤. الذريعة إلى تصانيف الشيعة، آقا بزرك الطهرانيّ، نشر طهران.

١٥. كليَّات علوم اسلامي، الشهيد مرتضى المطهَّريّ، انتشارات صدرا، قم.

١٦. مستدرك الوسائل، المحقِّق الميرزا حسين النوري، مؤسَّسة أهل البيت عليهم السلام، قم.